

عادات الحمل والإنجاب في تلمسان

الدكتورة نصيرة بكوش

جامعة تلمسان

الملخص:

يعتبر الحمل الوظيفة التي لا نظير لها للمرأة، بل إن الزواج لا يحقق الديمومة والاستمرارية إلا بعد إنجاب الطفل الأول في كثير من المجتمعات التقليدية، ونظرا لأهمية هذا الجانب وأثره على حياتها، فإنه تُحاط به الكثير من التحريمات والقواعد والمعتقدات الشعبية. لهذا نحاول في هذه الدراسة معرفة الهدف الاجتماعي لعادات الحمل والإنجاب.

الكلمات المفتاحية: الزواج - الحمل - الولادة

Résumé :

La grossesse est un travail très important pour les femmes, et le mariage n'atteint la permanence et la continuité qu'après la naissance du premier enfant dans de nombreuses sociétés traditionnelles et, en raison de l'importance de cet aspect et de son impact sur la vie, il est entouré de nombreuses règles et croyances populaires. Par conséquent, dans cette étude, nous essayons de connaître l'objectif social de la grossesse et des habitudes de procréation.

Mots clés : Mariage - grossesse - naissance

عادات الحمل والإنجاب في تلمسان

الدكتورة نصيرة بكوش

جامعة تلمسان

مقدمة

يمثل الإنجاب أهمية كبيرة في المجتمع التلمساني حيث يمكن القول أنّ مكانة المرأة وقيمتها هناك تتوقف على نشاطها في إنجاب الأطفال. ويُعدّ الإنجاب شرطا رئيسيا لاستمرار الزواج، وقد نقلت لنا الذاكرة الشعبية أمثالا شتى في هذا الموضوع، منها على سبيل الذكر لا الحصر:

1- أليّ ولّد ما مات

2- شفت الخيل بُغيث الرُكوب، شفت النسا بُغيث النجوب.

3- المرأ بلاّ ولّاد كالحخيمة بلاّ وتاد.

تدور هذه الأمثال حول محور واحد هو الإنجاب. والزواج هو الوسيلة الشرعية لإنجاب الأطفال، وتكثير النسل واستمرار الحياة، مع المحافظة على الأنساب وعلى العكس من هذا فإنّ ظاهرة العقم تكون في هذا المجتمع عاملاً من عوامل فشل استمرار العلاقة الزوجية. (1) بل إن المرأة العاقر تعاني داخل هذا الوسط احتقارا إلى درجة أنّها بعد طلاقها لا يمكنها الزواج إلاّ بشيخ طاعن. وهذا لا يتوقف فقط على نظرة المجتمع لها، بل يتوقف أيضاً على نظرتها لذاتها. فالإنجاب يعني بالنسبة للمرأة اكتمال أنوثتها، وعدم دونيتها عن غيرها من النساء وهو أيضاً في الوقت نفسه من أهم ما تحتاج إليه لتحصل على تقديرها لذاتها،

فإثبات الذات بالنسبة للأنثى كل حدّ قول Judith Band Wick يكون من خلال الدور الأنثوي الأموي فقط، وليس من خلال العمل أو الحياة الاجتماعية. (2)

ورغبة المرأة في أن تكون حاملاً ينظر إليه على أنه وكما ذكر Klein ان رغبة المرأة في أن تكون حاملاً ينظر إليه على أنه الرغبة والمسرّة الأولى والذي تستمدّ منه المرأة القوّة والتفاخر والتباهي pride والرضا والسّرور في أنّها من فئة التناسل وهي تعتبر السّمة الفريدة للأنثى وأيضاً لصحة المرأة حيث يعتبر الحمل تعبيراً عن إحساسها بالكمال وإيجاد ذاتيتها. (3)

ففي بعض القبائل مثل الدنكا Dinka (وهي من القبائل التي تسكن جنوب السودان في شرق إفريقيا)، حيث أنّ المرأة الولود لها قيمة اجتماعية كبيرة، وهذا يؤدّي إلى استقرارها. وفي حالة عدم الإنجاب، فمن الشائع أن يستدعي الزوج أبناء عشيرته، ويطلب إليهم الصلّاة والدعاء لروح Dingdit ويقومون بذبح شاة قرباناً من أجل ذلك. (4)

وتجري العادات أيضاً في المجتمع التلمساني أن تزور المرأة العاقر بعض الأولياء والأضرحة حيث تقوم بالطواف بالقبور سبع مرّات، ثمّ تأخذ خرقة من ستار قبر الوليّ وتحتزّم بها وبعدها تقدّم زيارة "للمقدّم" (الطالب الذي يحرص الضريح). ويقوم بالدعاء لها وفي الأخير يذبح زوجها دجاجة أو ديك قرباناً للوليّ. وإذا أكرمها الله وأنجبت فيسمّى المولود على اسم الوليّ الذي زارته.

1) الحمل والتغيّر الفيزيولوجي:

إنّ الحمل طقس مرور طبيعي من طور حياة إلى طور آخر، إنه فترة ممتدّة تكون فيها الإنسانة "بين بين" بين حالة وأخرى، وهي حالة أسمّاها فيكتور تيرنر الوقت "الانتقالي" أو الوقت الذي يقف فيه المرء على أعقاب مرحلة جديدة من حياته، حين توجد إمكانية لحدوث نموّ أو تغيّر هائلين. إنّ إبراز الخاصية الانتقالية للحمل إبراز لما تمثّر به حدود الجسد من تغيّرات مستمرة، ولوجود شخص آخر داخل الجسد سرعان ما سيخرج منه، إن الولادة

مرور عبر الحدود بالمعنى الحرفي للكلمة. كما أن الحمل يمكن أن يضع المرأة في اتصال عميق مع جسدها بطرق جديدة، وهي تراقب نمو الجنين، وتتعجب من قدرتها على خلق الحياة (5) وكما تراقب نفسها وهي تتغير فيزيولوجيا وعلامات التغير تبدو عليها في كافة أنحاء جسمها وليس فقط في بطنها. وهناك قوانين يجب أن تتبعها فيما يتعلق بحدود الحركة النشاط المسموح به لها مثل تجنب حمل الأشياء الثقيلة أو الصعود على السلم، بينما المشي فهو مسموح به لأنه ييسر لها عملية الولادة.

ومن الطقوس المرعية في هذا المجتمع وفي كل المجتمعات الأخرى أن تأكل الحامل جيداً وأن يكون غذائها كاملاً وغنياً ومتنوعاً، ويحرصون كثيراً على تناول الألبان ومشتقاتها لتزويد الصبي بالكالسيوم، إضافة إلى اللحوم والخضر والفواكه.

2) المرحلة الانفصالية والمعتقدات المرتبطة بالحمل:

في تلمسان، ان الحامل مجبولة على أكل كل ما تشتهيه، وتسمى هذه الفترة بمرحلة الوحم. وإذا لم تأكل ما اشتتهه -سواء أكان لحماً أم خضراً أم فواكه. فإنّ الولد سوف يولد بوحمة أي بعاهة. والوحم هو في الواقع عادة مصرية قديمة فمع ما قدره المصريون القدامى من فضل ربهم الذي يصون الجنين في بطن أمه ويحفظ تنفسه، وينزل السكينة عليه، فلا يئن ولا يبكي، فظنوا في الوقت ذاته إلى أنّ غذاء الأم الحامل هو السبب المباشر لنمو الجنين وتغذيته. وسمع المؤرخ ديودور الصقلي. (6) هذا الرأي منهم وكتب يقول إن المصريين وإن اعتقدوا أنّ الأب هو المسؤول فعلاً عن الإنجاب، إلّا أنهم يعتقدون في الوقت ذاته أنّ الأم هي الوسيلة الوحيدة إلى تزويد جنينها بالغذاء والجنة (الحفظ والحماية). ولا يُستبعد أن يكون اهتمام السيدات الآن بوحم الأم-وتلبية ما تشتهيه في فترة حملها خشية أن يتأثر تكوين المولود بحرمانها منه - أثراً من آثار التفكير القديم. (7)

وفي الثقافة التلمسانية يأخذ الحمل شكل السرية التامة والتحفظ الشديد -خاصة في الشهور الأولى. - ليكتمل نمو الجنين وهذا خوفاً من العين والحسد، وقد تعيش الحامل

نوعًا من العزلة والانفصال في المرحلة الأولى حيث يقدّم لها الأكل متنوعا في آنية لوحدها لأنها يجب أن تتغذى جيدًا. وفي النوم أيضًا تنام منعزلة ، خاصة إذا كان حملها مُهدّدًا بالإجهاض وذلك للتفوق من الاتصال الجنسي.

وقد اهتمّ العديد من العلماء بموضوع العزلة والانفصال في الحمل والميلاد فأشار فريزر Frayzer وكراولي Crawly إلى عادات الانفصال أثناء فترة الحمل بالنسبة للمرأة في أكواخ خاصة، وفي منطقة محدودة من المنزل وقواعد المحرّمات الخاصّة بالتغذية والعلاقات الجنسية. كما تحدّث أيضًا فإن جنب Van gennep عن طقوس وشعائر الانفصال عند المرأة الحامل. ويرى أن الشعائر الأولى المرتبطة بما تهدف غلى العمل على انفصال الحامل عن المجتمع، وعن جماعتها النوعية (8) ويذهب فان جنب إلى أن الحامل في بداية الحمل يجب أن توضع في حالة عزلة لأنها تعتبر غير طاهرة ونجسة، أو لأنّ الحمل يضعها من الناحية الفيزيولوجية والاجتماعية في وضع غير طبيعي (9) وهذا عكس ما نراه نحن، فالمرأة الحامل عندنا تعتبر طاهرة والدليل على ذلك انقطاع دم الحيض في هذه الفترة، كما نعتقد أن الحامل يحيط بها الملائكة في هذه الفترة. وانفصالها في الثقافة التلمسانية ليس بسبب نجاستها كما ترى الثقافات الأخرى وإنما تفاديًا لبعض المشاكل، ودعوة لأسباب أخرى سبق ذكرها.

مدى ارتباط بعض التغيرات البيولوجية والفيزيولوجية بالمعتقدات السائدة:

بعد ظهور علامات الحمل عند المرأة، تبدأ الأسرة في التفكير في اختيار اسم المولود، ويفضّل عادة أن يكون ذكرًا، وذلك لأن الذكر يحافظ على بقاء الاسم، ويزيد في قوّة القبيلة والعشيرة. كما أنه يستطيع تحمل أعباءها وإعالتها عند كبر الوالدين. وتشيع الكثير من الخرافات في تلمسان، والتي تدور حول تحديد جنس الصبي. فبعض الخرافات تتعلّق بشكل بطن الحامل وأخرى بتحركات الجنين، وبعضها الآخر بجمال المرأة أو قبحها. ففي هذا المجتمع يفسّر ازدياد طفل ذكر عندما يكون شكل البطن مقببا، وعندما تكثر تحركات الصبي في البطن، وكذلك عندما تصبح الحامل قبيح المظهر. ويكون هذا التفسير انطلاقا

من قولهم: "الْوَلَدُ يَقُولُ أَشْيَانِي يَأْمًا شِيَانِي حَتَّى نَزَادَ وَرُيَانِي، وَالبَنْتُ تُقُولُ أَزْيَانِي يَا مَّا زِيَانِي حَتَّى نَزَادَ وَشِيَانِي" وتفسير ازدياد المولود بنتًا انطلاقًا من شكل بطن الحامل والذي يكون عريضًا غير مقببًا، والأنثى تكون بطيئة الحركة في البطن إضافة إلى ان الحامل تصبح جميلة الوجه أثناء الحمل انطلاقًا من القول الذي سبق ذكره "ازياني يا ما ازياني حتى نزاد وشياني". وبالفعل هذه المعتقدات ما زالت سائدة في معظم الأسر التلمسانية على اختلاف درجاتهم العلمية والثقافية.

3) - المرحلة الإعدادية والتمهيدية للحامل:

تشكل طقوس الحمل وما يصاحبها من عادات وتقاليد كلاً متكاملًا ومستقلًا طبقيًا لنظرية فان جنب، فبعد مرحلة الانفصال، تليها مرحلة أخرى هامة ألا وهي المرحلة التمهيدية والإعدادية. وتبدو مظاهر هذه المرحلة في التعليمات والتوجيهات التي تتلقاها الحامل من حمائها وأمتها وخالتها أي من السيدات الكبيرات السن أو ذوات الخبرة في هذا المجال. كما تستعد الحامل في هذه المرحلة لتجهيز ملابس المولود الجديد وعادة ما تصنعها بنفسها وكما يقع أيضًا هذا التجهيز على عاتق أم الحامل ويكون هذا حسب المستوى الاقتصادي للأسرة. ويتم اختيار اللون الأزرق للذكر، واللون الوردي للبنات، أما الأبيض فيشمل الذكر والأنثى في نفس الوقت، وفي المرحلة التمهيدية أو الإعدادية أو الهامشية تتحمل الحامل أكثر من المعاناة تمهيدًا للتحويل إلى المكانة الجديدة (مرحلة الاندماج) بدءًا بالوحم والتقبي والتغير الفيزيولوجي وأوجاع البطن والظهر والثقل، وتعكر المزاج والقلق إلى غاية الدخول في المرحلة التي تليها، وازدياد المولود.

4- الولادة ومرحلة الاندماج:

وتأتي شعائر فترة الميلاد وهي التي تهدف إلى إعادة اندماج وتكامل المرأة مع مجتمعتها التي كانت تنتمي إليها من قبل، أو حصولها على وضع ومكانة جديدة في المجتمع خاصة في حالة إنجاب الطفل الأول ومن ثم تظهر مرحلة الاندماج. (10) والميلاد هو طرد الجنين من

رحم الأمّ بعد اكتمال فترة الحمل وتقوم بهذه العملية "الداية" وهي امرأة مسنة تقوم بتوليد النساء الحوامل في البيت. ولكن هذا كان سائداً في القديم. بينما اليوم أصبحت العملية تجري في المستشفى عن طريق ذوي الاختصاص كالممرضات والأطباء.

وتحرص الحماة على أن تتم هذه العملية في سرّية باستثناء أمّ الحامل التي يجب أن تكون برفقتها لأنّ عملية الولادة صعبة وعسيرة لدرجة أنها قد تؤدي إلى الموت في بعض الأحيان. وبعد إتمام هذه العملية، يُقدّم للأمّ قهوة ساخنة مع بعض الحساء الساخن وذلك ليجري الحليب في ثديها ليتغذى منه الرضيع. وهذا الحليب يُسمّى في تلمسان باللبّاء وهو غنيّ بالفيتامينات ويساعد الرضيع على النمو. وكم تكون الفرحة كبيرة عند ازدياد المولود ذكراً لأنه يشكل بالنسبة لأمّه استثماراً سيكولوجياً كبيراً على اعتبار أنه يُدعم مكانتها داخل الأسرة ويحقق لها اعتباراً اجتماعياً يجعل منها تلك الأمّ الولود التي تساهم في استمرارية المجتمع، واستمرارية النسب، فإنها بالإضافة إلى هذا فالأمّ تحقق ذاتها عبر الطفل الذكر بحيث تضمن لنفسها حليفاً يدعمها ويؤازرها. (11) وقد يرجع التدرّج في الرتب بين الذكر والأنثى إلى أن الابن يحلّ محلّ الوالد بعد الشيخوخة أو أثناء المرض، أو للمحافظة على الاسم والإرث، فالملكية تنتقل من الحدّ إلى الأب إلى الابن فالذكر أحقّ بها من الأنثى. وليس معنى هذا أن ازدياد البنت في تلمسان غير محمود ومنبوذ لان هناك أمثالا شعبية تشخص هذه الظاهرة منها:

"اللي خلا لبنات ما مات"

اللي ما عند لبنات ماعرّفوه فاين مات

فمن قراءة هذين المثلين يتبيّن لنا أنّ هذا النوع من الأسر يُفضّل الأنثى على الذكر، لأنّها على ما نظن أكثر حناناً، فالبنت تحتفظ بذكرى أبيها مدّة طويلة جداً ، ولو بدموعها التي تدرفها من أجله. فطبيعة الفتاة تجعلها تُعبّر عن مشاعرها بصورة لا يستطيع الذكر استعمالها للتعبير عن مشاعره، ولهذا نجدها تشكّل ملجأ دافئاً للأبوين عند كبر سنّها أو مرض أحدهما.

5- طقوس الاحتفال بالمولود:

بعد خروج النفساء من المستشفى تقوم أمها أو حماها ببعض الممارسات التي تيسر للصبي عملية الانتقال والتحول إلى مرحلة الاندماج ، والتي تستهدف إكساب الطفل مزيداً من الجمال والصحة كتكحيل عينيه بالكحل وتدليكه بزيت الزيتون، ثمّ تقيطه وبعد ذلك تجعل خامسة صغيرة في لباسه كشكل لدرك العين والحسد عنه. وفي اليوم الثالث تقوم العائلة بطبخ البركوكس (وهي أكلة شعبية تقليدية ممزوجة ببعض الأعشاب) ويقدم ساخناً للأقارب والجيران الذين يأتون لتقديم التهاني والتبريكات. وما هو جدير بالذكر هو أن هذا "البركوكس" له دور علاجي لأنه يزيد من الإخصاب ويعمل أيضاً على غسل الأمعاء وتصفيتها من السموم .

6- العقيقة أو أسبوع المولود (السابع):

ينطوي هذا اليوم (السابع) على العديد من المظاهر والممارسات التي ترمي إلى التعبير عن الفرح والسعادة والابتهاج بازدياد المولود وخاصة إذا كان ذكراً كما ذكرنا سابقاً. وتقضي التقاليد في ولاية تلمسان أن تحتفل بيوم السابع وتسمى "بالعقيقة". العقيقة في اللغة معناه القطع ومنه عَقّ والديه إذا قطعهما ومعناه في الاصطلاح الشرعي ذبح الشاة عن المولود يوم السابع من ولادة الطفل. (12) والعقيقة في الأصل الشعر الذي يكون على رأس المولود حين يولد وسميت الشاة التي تُذبح عنه عقيقة لأنّ ذلك الشعر يخلق حين الذبح. (13)

وتجري العادة أن تحتفل الأسر في ولاية تلمسان باليوم السابع للمولود الأول الذكر ويسمى في تلمسان "المزوار" ولعلّ هذا الاسم كما ذكر بن رمضان شاوش مصدره نظام الحكم الذي كان سائداً وقت دولة بني عبد الواد. فكان الحاجب يسمى "المزوار" والذي يتصل مباشرة بالسلطان ويأذن بالدخول عليه بعد أخذ الإذن منه. (14)

ومن طقوس السّابع أن تقوم جدة المولود ذكرا كان أم أنثى باستحمامه ثم تلبسه لباساً أبيضاً جميلاً لأن الأبيض رمز للطهارة والنقاء والصفاء وبعدها تخضب يديه ورجليه بالحناء لأن هذه المادة مطهرة وتساعد على العبور والمرور إلى الحياة الجديدة والاندماج فيها. كما تتضمن أيضاً شعائر الاندماج شعائر تسمية الطفل، حيث أنّها في بعض الأحيان تعكس الجوانب الفردية أو الخاصة في حياة الطفل، كما أنّها تعمل من ناحية ثانية على إدماجه وتقديمه للمجتمع. (15) ومن الأسماء الأكثر انتشاراً في تلمسان، محمد عبد الرحمن، أحمد، مصطفى، وغيرها من الأسماء التي ينهلونها من الدين الإسلامي انطلاقاً من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن أحبّ أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن" أمّا بالنسبة للإناث، فالأسماء المنتشرة في هذا المجتمع، فاطمة الزهراء، زينب، سمية، عائشة وغيرها وهي كلّها أيضاً مستوحاة من ديننا الإسلامي. (16) وفي يوم الاحتفال بالسّابع، تدعى النساء من الأهل والجيران والأصدقاء، فتأتي حاملات هدايا للمولود لتهنئة الأمّ وتقديم لها التبريكات. وبعدها تجلس على موائد من المأكولات الشعبية وهي تختلف باختلاف المستوى الاقتصادي لكل عائلة. وبعدها تقدم القهوة والشاي مع حلوة "تقنتة: أو "الطّمينة" وهي مصنوعة من السميد والزّبد والعسل وفيها مكسّرات عديدة كالجوز والكاكاو والفسقن وغيرها. ولهذه الأكلات فوائد كثيرة تساعد الأمّ على اكتساب حليبها وافرا لتغذية الرضيع، كما لها دور أيضاً في الإخصاب.

الهوامش والمراجع:

- ¹ - محمد عاطف، المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحرافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1987، ص 162.
- ² - هنّومة محمد، ثقافة الحمل، دار المعرفة الجامعية، 2009، ص 111.
- ³ - المرجع نفسه، ص 111.

مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) (العدد العشرون) 20 يناير 2018

- 4- المرجع نفسه، ص 111. (نقلاً عن فاروق مصطفى اسماعيل، الأنثروبولوجيا الثقافية، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب 198، ص 21)
- 5- كارول مزونيهان، ترجمة سهام عبيد السلام، أنثروبولوجيا الطعام والجسد، النوع والمعنى والقوة، الطبعة الأولى، 2013، ص 324، القاهرة، الهيئة المصرية العامة، المركز القومي للترجمة، ص 324.
- 6- مرفت العشماوي، عثمان العشماوي، دورة الحياة، دراسة للعادات والتقاليد، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2011، ص 69.
- 7- عبد العزيز صالح، الأسرة المصرية في عصورها القديمة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 74
- 8- مرفت العشماوي، مرجع سابق، ص 66.
- 9- المرجع نفسه، ص 66.
- 10- المرجع نفسه، ص 66.
- 11- عمراوي فاطمة، وضع الطفل المغربي وأسلوب معاملته داخل الأسرة من خلال الأمثال الشعبية، ص 72.
- 12- عبد الله ناصع علوان، تربية الأولاد في الإسلام، ج1، دار الشهاب باتنة، ص 88.
- 13- موطأ الإمام مالك، ص 336.
- 14- محمد بن رمضان شاوش، ص 363.
- 15- مرفت العشماوي، مرجع سابق، ص 106
- 16- رواه مسلم